المحاضرة 3:

المؤسسون:

أ/ أوغست كونت (1798-1857) *Auguste Comte*:

هو من سمىّ العلم الجديد بعلم الاجتماع، فمن اللغة اللاتينية استمد مفردة *socio* التي تعني المجتمع، ومن اللغة الإغريقية مفردة *logos* أي العلم. فكان علم الاجتماع: علم المجتمع أو علم دراسة المجتمع. أوغست كونت يعد أيضا من أوائل من قال بإمكانية والحاجة لخلق علم اجتماعي جديد (سبقه إلى ذلك عبد الرحمان ابن خلدون في القرن 14).

كونت هو مؤسس " الفلسفة الوضعية". حسب رأيه، كل اكتساب للمعرفة يجب أن يتحقق انطلاقا من ملاحظة للواقع ليتم فيما بعد صياغة مقولات نظرية. ملاحظة الواقع يجب أن تسبق كل اقتراح نظري. ليعارض بذلك أولئك الذين يضعون مقدمات نظرية دون مطابقتها للواقع. حسب كونت علم الاجتماع عليه التحلي بهذا الطابع الوضعي والعلمي، عليه أن يكون قبل كل شيء علم ملاحظة (*une science de l'observation*). عليه أن يطبق نفس المنهجيات العلمية الصارمة التي تطبقها العلوم الطبيعية: الفيزياء أو الكيمياء.

كونت أوكل لنفسه مهمة إنهاء صياغة العلوم الوضعية (تلك التي تعتمد على الملاحظة والتجربة) وذلك عبر تأسيس آخر وأعقد علم وضعي، وهو ذلك الذي يختص بدراسة الظواهر الاجتماعية، فكان ما أسماه علم الاجتماع، وهي التسمية التي فضلها على تسمية أخرى: الفيزياء الاجتماعية.

إذن بالنسبة لكونت علم الاجتماع يمثل العلم الذي يختم تطور ومسار العلوم الوضعية. هذا العلم الجديد برأيه ينقسم إلى حقلين كبيرين للدراسة:

- الستاتيكا الاجتماعية (الثبات الاجتماعي): دراسة محددات وعوامل النظام و التماسك الاجتماعي.
- الديناميكا الاجتماعية (التغير الاجتماعي): دراسة تطور الإنسانية والقوانين التي تسير نمو المجتمع الإنساني وتحكم تغيره.

لم يمكّن لكونت من المساهمة في مضمون الستاتيكا الاجتماعية، لكنه في المقابل انصب على دراسة الديناميكا الاجتماعية بحديثه عن قانون المراحل الثلاث التي مر بها التفكير الإنساني:

1. المرحلة اللاهوتية: أين تم اعتبار الظواهر منتجات لأفعال مباشرة لقوى فوق الطبيعة، وأن لا دخل ولا سيطرة للإنسان عليها.
2. المرحلة الميافيزيقية: القوى فوق الطبيعية عوضت بأفكار وتصورات مجردة، مثل: الحرية، المساواة، العقل، الفرد... التي جعلت البشر ينظرون إلى ظواهر المجتمع بشكلها الطبيعي.
3. المرحلة الوضعية: يميزها البحث عن القوانين التي تحكم الظواهر باستعمال التفكير العقلي والتجريب. هذه المرحلة ميزتها الاكتشافات والاختراعات العلمية (نيوتن، كوبرنيك، غاليلي...).

حسب كونت، المرحلة الوضعية هي مرحلة حتمية، نهائية ودائمة. هذه النظرة التطورية للفكر الإنساني ستعرف فيما بعد انتقادات كثيرة. خاصة وأنها تنطبق فقط على وضع التفكير الإنساني في أوربا وليس في العالم كله.

ب/ إيميل دوركايم (1858–1917) *Emile Durkheim*

لدوركايم مشروع سوسيولوجي واضح، مكنه من القيام بدراسات جادة لإشكاليات اجتماعية مختلفة (الدين، الانتحار، التعليم...)، لذا فهو يعتبر المؤسس الحقيقي للسوسيولوجيا الفرنسية. طيلة حياته لم يتوان عن الإفصاح عن إرادته في الجعل من علم الاجتماع علما قائما بذاته كبقية العلوم.

أعمال دوركايم ودراساته السوسيولوجية تركت أثرا أهم وأبقى من أعمال ودراسات كونت. كان دوركايم يشارك كونت الرأي بأن علينا دراسة الحياة الاجتماعية وفق روح موضوعية مثلما يفعل العلماء عند دراستهم للعالم الطبيعي. لذا فإن أول مبدأ وضعه دوركايم لعلم الاجتماع هو "فلندرس الظواهر الاجتماعية باعتبارها أشياء"، وهو يعني بذلك أنه يمكن تحليل الحياة الاجتماعية بالطريقة الصارمة نفسها التي نحلل بها الأشياء والأحداث في الطبيعة.

موضوع الدراسة في علم الاجتماع هو الظاهرة الاجتماعية:

بالنسبة لدوركايم، موضوع الدراسة في علم الاجتماع هو "الظواهر الاجتماعية". لكن، ما هي الظاهرة الاجتماعية؟ ما هي خصوصياتها؟ ما الذي يميزها؟ ما الذي يجعل واقعا اجتماعيا ما ظاهرة؟ ... على حسب إجاباته على هذه الأسئلة، يكون دوركايم، من جهة قد بيّن ما يدرسه علم الاجتماع، ومن جهة أخرى قد حدّد الفرق بين علم الاجتماع وبقية العلوم الاجتماعية.

دوركايم يعتبر **الظواهر الاجتماعية**: **"طرق الفعل، التفكير والإحساس. الخارجية في وجودها عن الفرد، والتي تمتلك قوة إلزامية تفرض بها نفسها على الفرد"**

بالعودة إلى تعريف دوركايم للظواهر الاجتماعية نجد أن لها ميزتين:

- **خارجية عن وعي الأفراد**: فالظواهر الاجتماعية توجد خارجنا كأفراد. هي توجد قبل مولدنا وتستمر في الوجود بعد موتنا، لأن زمنها (*temporalité*) أطول من زمن الحياة الإنسانية، فهي توجد قبلنا وبعدنا. على نفس النحو هي لا تحتاج إلى وجودنا الجسدي لكي تظهر أو تنكشف. إذن هي موجودة بمعزل عن أحاسيسنا.

مثال: وجود ظاهرة الانتحار غير مرتبط بوجودك أنت، فهي موجودة قبل أن تولد وستبقى موجودة بعد أن تموت.

- **القوة الإلزامية**: الظواهر الاجتماعية تمارس على الأفراد نوعا من الإلزامية والقسرية، التي هي من القوة حيث أنها تفرض نفسها عليهم، هي موجودة رغما عنا. بعبارة أخرى، الظواهر الاجتماعية تتجاوز الإرادات الفردية.

مثال: لسنا مجبرين على ارتداء نفس النوع من اللباس، ولا على التكلم بنفس اللغة... لكن إذا ما حاولنا نحن كأفراد الخروج عن قواعد اللباس واللغة الموجودة في المجتمع، فسنجد أنفسنا عرضة للضحك والسخرية وحتى للتهميش والإقصاء. إذن هناك قوة إلزامية تمارسها الظاهرة الاجتماعية والمجتمع علينا.

اهتمام عالم الاجتماع منصب على التجلي الجماعي للظواهر الاجتماعية. كل الظواهر الاجتماعية تتجسد في الأفراد، لكن ما يهم عالم الاجتماع هو تجلياتها الجماعية (عالم الاجتماع يهتم بدراسة الجريمة أكثر من اهتمامه بدراسة شخصية المجرم، يهتم بالانتحار لا بحياة المنتحرين، بالزواج لا بالأزواج).

هذه الفكرة تجد مصدرها لدى دوركايم من اعتقاده أن للمجتمع كينونة ووجود طبيعي مستقل بحد ذاته. بعبارة أخرى، المجتمع أكبر بكثير من كونه حاصل مجموع الأفراد الذين يشكلونه.

دوركايم يرى أن المجتمعات التي نعيش فيها، وننتسب إليها، تفرض قيودا وضغوطا اجتماعية على أفعالنا. هو يرى أن للمجتمع اليد الطولى على الإنسان الفرد. وأن المجتمع يتمتع بنوع من الصلابة والثبات المستقر، يشبه ما في البنى الموجودة في البيئة الطبيعية حولنا. ويمكننا أن نتصور هذا الوضع إذا ما تخيلنا شخصا يقف في غرفة ذات أبواب عديدة. إن بنية الغرفة أو الحجرة تحدد مدى أنشطة هذا الشخص الممكنة وموقع الجدران والأبواب يحدد منافذ الدخول والخروج.

> "عندما أقوم بواجباتي باعتباري أخا أو زوجا أو مواطنا، وأؤدي الالتزامات التي أخذتها على نفسي، فإنني ألتزم بما هو مُعرّف في القانون أو في التقاليد... وتقع هذه المؤثرات خارج نفسي وأفعالي وتصرفاتي... وبالمثل، فإن المؤمن يكتشف منذ مولده عقائد وممارسات جاهزة تحدد ملامح حياته الدينية، أي أنه يصادفها خارج نفسه.
> كما أن نسق الإشارات والدلالات (اللغة) التي استخدمها للتعبير عما يدور في نفسي من أفكار ومشاعر والممارسات التي انتهجها في حياتي المهنية، هي بمنزله كيانات مستقلة وفاعلة، بصرف النظر عن الطريقة التي استخدمها بها. وإذا ما أخذنا في الاعتبار كل فرد في المجتمع فإن هذه الملاحظات تصدق على الجميع".
> إيميل دوركايم، قواعد المنهج السوسيولوجي

تقوم البنية الاجتماعية في نظر دوركايم بتقييد أنشطتنا بصورة متوازية، إذ أنها تحدد المسارات لما يمكن أن نفعله كأفراد. إنها خارجة عنا، شأنها في ذلك شأن جدران الغرفة. ولأن عالم الاجتماع يستطيع دراسة الظاهرة الاجتماعية بعيدا عن تجلياتها الفردية، فذلك لأنها توجد خارج الأفراد.

مثال: الانتحار كظاهرة اجتماعية تتحقق وتتجلى جماعيا، وأيضا تتجسد في الأفراد، في شخص المنتحر. لكن ما يهم عالم الاجتماع ليس شخص المنتحر بل التجلي الجماعي للانتحار، هو يهتم بالانتحار لا المنتحر، الفساد لا الفاسد، الجريمة لا المجرم، الاستهلاك لا المستهلك...الخ

> **الانتحار ظاهرة اجتماعية:**
> اتجاه دوركايم نحو دراسة موضوع الانتحار لم يكن صدفة. فالانتحار يقدم غالبا عبر وسائل الإعلام وعند الناس على أنه فعل فردي، يجب دوافعه في مبررات وأسباب شخصية (حالة انهيار ناتجة عن مشاكل وجودية، عاطفية، مالية...). إذن الانتحار بهذا يكون موضوع للدراسة في علم النفس فقط.
> لكن دوركايم وعبر دراسة الانتحار يريد إثبات أنه يمكن دراسته وفهمه من زاوية سوسيولوجية، وأن الدوافع والمسببات الشخصية التي يفسر بها عادة، تخفي أسباب اجتماعية تتجاوز الوعي الفردي (تتجاوز شخص المنتحر).

سوسيولوجيا كلية:

يقول دوركايم: "الظاهرة الاجتماعية موجودة في كل جزء لأنها موجودة في الكل، لا أنها موجودة في الكل لوجودها في الأجزاء". وهو بقوله هذا يكون قد تبنى مقاربة كلية في دراسة المجتمع.

تعريف: السوسيولوجية الكلية مقاربة بحث تعتبر أن البنى الاجتماعية (الكل) مثل: التعليم، الدين، الاقتصاد العادات، التقاليد، الثقافة، السياسية... هي من تأثر وتفسر سلوك الأفراد (الأجزاء). يقابلها مقاربة سوسيولوجية أخرى هي الفردانية (ماكس فيبر) التي تعتبر على العكس أن الظواهر والبنى الاجتماعية (الكل) هي نتاج أفعال معتقدات واتجاهات فردية (الأجزاء).

بالنسبة لدوركايم، ليس الأفراد **(الأجزاء)** من بإمكانهم شرح وتحديد وتفسير الواقع الاجتماعي **(الكل)**، لكن هو **الكل** الذي بواسطة القوة الإلزامية والقسرية للظواهر الاجتماعية من يؤثر ويحدد ويفسر سلوكات الأفراد **(الأجزاء)**.

لذا فهو يعتقد أن على عالم الاجتماع أن يدرس المجتمع من منطلق ماكرو-سوسيولوجي، أين يركز الاهتمام على الوحدات الاجتماعية الكبرى (البنى) مثل: العائلة، الطبقات الاجتماعية، المدرسة، المؤسسة الاقتصادية... وليس على الوحدات الاجتماعية الصغرى المكونة لكل مجتمع: الفرد. إذن على عالم الاجتماع دراسة الكل (المجتمع) وليس الأجزاء (الأفراد)، وذلك بتبيان بعض الحتميات الاجتماعية.

سوسيولوجيا حتمية:

فالمجتمع وعن طريق القوة الإلزامية التي تمارسها الظاهرة الاجتماعية على الأفراد، يحتم عليهم تبني طرق معينة في الفعل، الفكر والشعور.

مثال: كونك شاب يجعلك أقرب إلى سماع نوع موسيقى معين أو إلى ارتداء لباس معين، أكثر من آخر.

المنطق الحتمي متفرع عن مقاربة كلية، لأنه يهدف إلى تبيان مختلف تأثيرات البُنى الاجتماعية على الأفراد. وهو يقول بأولوية الكل على الجزء.

مثال الانتحار:

لما قام دوركايم بدراسة الانتحار، فلقد تبنى سوسيولوجيا حتمية، عبر البحث في الارتباطات الموجودة بين معدل الانتحار وبعض المتغيرات السوسيو-ديمغرافية (السن، الجنس، الحالة المدنية، مكان الإقامة، الديانة...). من هنا فلقد وجد أن معدل الانتحار:

- يرتفع مع السن.
- يرتفع مع حجم المدن: الانتحار يكون في المدن أكثر من الأرياف.
- أعلى لدى الرجال منه لدى النساء.
- أقل لدى المتزوجين مقارنة بالعزاب والأرامل.

تفسير الاجتماعي بالاجتماعي:

الارتباطات السابقة ستسمح لدوركايم من تقديم تفسير اجتماعي للانتحار. تباعا للمقاربة الكلية/الحتمية فهو يرى أن الأسباب الاجتماعية وحدها من يمكنها شرح وتفسير الانتحار من وجهة نظر سوسيولوجية. بهذا يكون قد أبعد التفسيرات النفسية للظاهرة بتطبيقه للمبدأ التالي: "السبب المحدد لظاهرة اجتماعية يجب أن يُبحث عنه بين الظواهر الاجتماعية السابقة وليس في الوعي الذاتي للأفراد".

بالرغم من هذا، فإن هذا المبدأ لا يمنع عالم الاجتماع من الارتكاز والاعتماد على نتائج عالم النفس. فالتمظهرات الفردية للظاهرة تهم عالم الاجتماع دون أن تشكل المادة الأساسية لعلمه.

الأسباب الاجتماعية للانتحار... أو كيف نفسر الاجتماعي بالاجتماعي

بعد إقصاءه للتفسيرات النفسية (الانتحار نتيجة للجنون...)، العرقية (بعض الأعراق لها استعداد أكثر من الأخرى للانتحار) ومناخية (الانتحار يعود لمحددات مناخية كالطقس)، قام دوركايم بتبيان أن الانتحار مرتبط بعاملين اجتماعيين اثنين:

- **درجة الاندماج في المجتمع**: على حسب ارتفاع أو انخفاض هذه الدرجة، يميز دوركايم بين نوعين من الانتحار:

الانتحار الإيثاري: لما يكون الأنا الفردي ذائب ومستوعب تماما في الأنا الجماعي. بمعنى لما تكون درجة الاندماج عالية جدا كما في الجيش مثلا، فهذا يرفع من خطر الانتحار. على هذا النحو يفسر دوركايم الانتحار العسكري (الكاميكاز).

الانتحار الأناني: لما تتفوق الفردانية على الهوية الجماعية، بمعنى لما تكون درجة الاندماج في المجتمع أو الجماعة التي ينتمي إليها الفرد منخفضة جدا. وفق هذا يفسر دوركايم انتحار الأرامل والعزاب.

- **درجة الضبط في المجتمع**: على حسب ارتفاع أو انخفاض هذه الدرجة، يميز دوركايم بين نوعين آخرين من الانتحار:

الانتحار القدري: لما يكون معدل الضبط عال جدا، أي لما تكون الرغبات الفردية مقيدة جدا فهذا يرفع من خطر الانتحار. وفق هذا يفسر دوركايم انتحار السجناء والعبيد.

الانتحار الفوضوي (**انتحار الضياع**): لما يكون معدل الضبط منخفض جدا، أي لما لا تكون الرغبات الفردية مقيدة ومقننة بالشكل الكافي، فهذا يزيد من خطر الانتحار. إنه نوع من الانتحار ينتشر في وقت الأزمات الاقتصادية، السياسية، الاجتماعية والأخلاقية...

الرباط الاجتماعي... من تضامن إلى آخر:

في مجتمع يحتل فيه الفرد يوما بعد يوم مكانة أقوى، يتساءل دوركايم حول كيفية تمكن أفراد المجتمع من الاستمرار في العيش مع بعضهم البعض بطريقة تضامنية ويتمكنوا من تشكيل المجتمع؟

بصياغة أخرى للسؤال ووفقا للمقاربة الكلية: ما الذي يجعل "الكُل" (المجتمع) يتحقق ويستمر؟ كيف ينشأ التضامن الاجتماعي؟

في كتابه "التقسيم الاجتماعي للعمل" (1893) يقف دوركايم على التحول الذي طرأ على شكل التضامن الاجتماعي. من مجتمع بـ"تضامن آلي" إلى مجتمع بـ"تضامن عضوي". دوركايم يحدد العامل الفاصل بين هذين النوعين من التضامن في "التقسيم الاجتماعي للعمل"، والمتعلق بما عرفه المجتمع من توسع وتمايز في المهن والحرف المختلفة.

المجتمعات التقليدية ذات **التضامن الآلي** هي مجتمعات تكون فيها السلوكات الفردية والنشاطات الإنتاجية على درجة كبيرة من التشابه. الأفراد الذين يعيشون في مجموعات صغيرة ومتقاربة (القبيلة، القرية...) يتبنون سلوكات وقيما وأفكار متشابهة. التضامن الاجتماعي هنا يقوم على **الشبه** (*la similitude*) ويعمل وفق طريقة آلية.

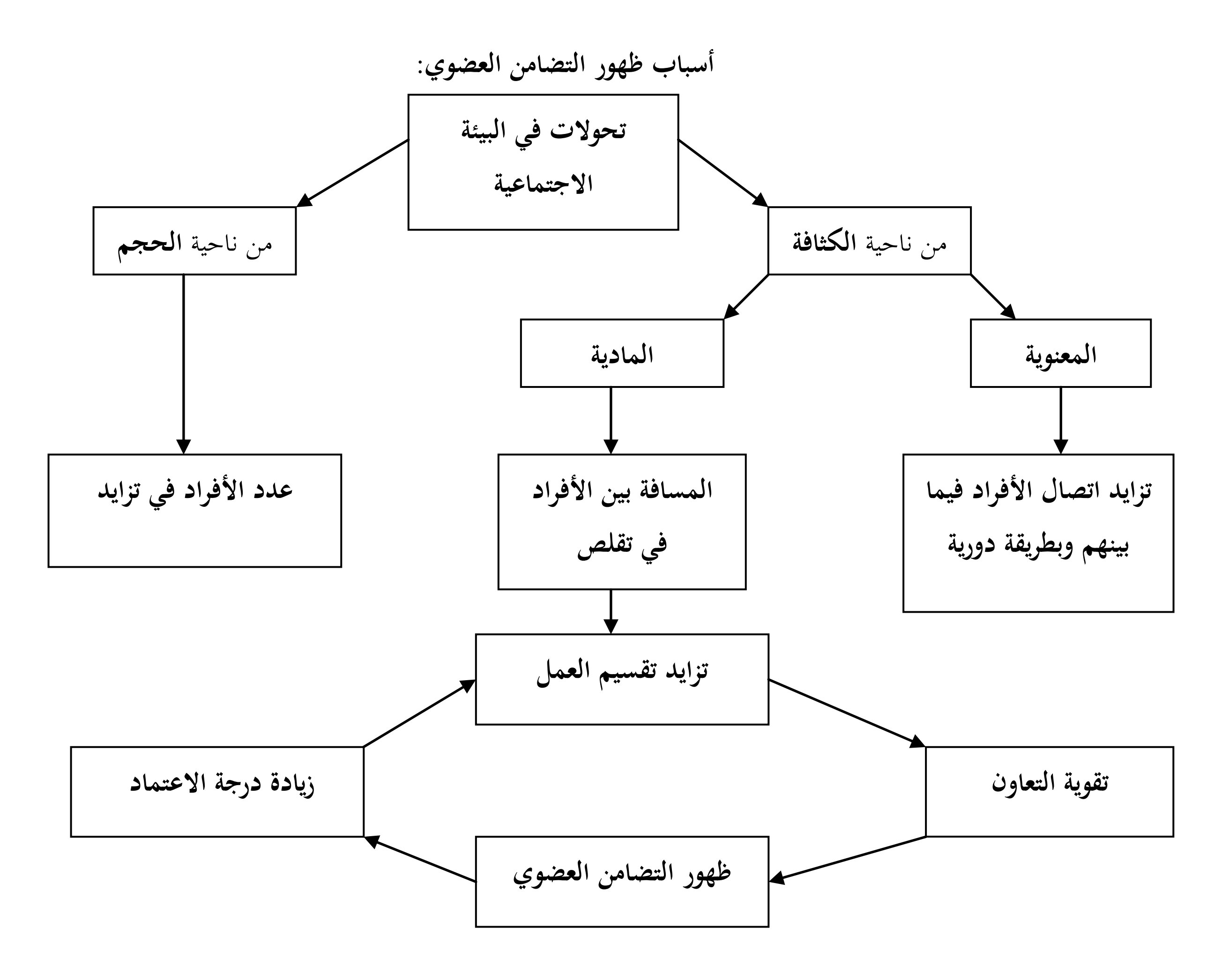
أما المجتمعات الحديثة فهي ذات **تضامن عضوي**، أين يعرف تقسيم العمل درجات متقدمة، ويحتل الأفراد مكانات مختلفة ويلعبون أدوارا متنوعة، كما أنهم يعيشون في مجموعات كثيفة ومختلطة (المصنع، المدينة، النادي، المدرسة...)، ومرتبطون ببعضهم البعض في تلبية مختلف الحاجات. التضامن الاجتماعي هنا يقوم على **التكامل** (*la complémentarité*) المرتبط بتنظيم المجتمع، ويعمل وفق طريقة عمل جسم الإنسان.

إذن، حسب طرح دوركايم، التقسيم الاجتماعي للعمل هو شاهد على الانتقال من مجتمعات بتضامن آلي إلى مجتمعات أخرى بتضامن عضوي.

دور تقسيم العمل:

حسب دوركايم "التقسيم الاجتماعي للعمل" يجد مبرراته في التطور الذي عرفه المجتمع فيما يخص **ارتفاع كثافة وحجم التفاعلات الاجتماعية**. أما عن الدور الذي يعلبه تقسيم الاجتماعي للعمل، فهو دور في الأساس اجتماعي، كون تقسيم العمل هو أساس للتضامن ونتيجة لارتفاع كثافة وحجم التفاعلات الاجتماعية.

أسباب ظهور التضامن العضوي:



دوركايم يعد –ودون منازع– أكثر كاتب ساهم في الاعتراف العلمي بعلم الاجتماع. ولقد تأثر علم الاجتماع –خاصة في فرنسا– ولعقود طويلة بهذه المدرسة الحتمية الكلية، على الرغم من أن نفس الفترة عرفت مفكرا آخر هو الألماني ماكس فيبر، والذي يعود له الفضل في وضع أسس مقاربة سوسيولوجية جديدة.

المحاضرة 4:

ج/ كارل ماركس (1918–1883) *Karl Marx*

كارل ماركس يعتبر في نفس الوقت: فيلسوفا، رجل سياسة، عالم اقتصاد، عالم اجتماع، مؤرخ ومفكر. ومن غير الممكن حصره في ميدان علمي واحد. لذا فليس مشروعا لنا اعتباره فقط عالم اجتماع، لكن يمكننا التأكيد على أنه بفكره وأعماله كان أحد المساهمين الأساسيين في نشأة علم الاجتماع.

ماركس عايش ميلاد المجتمع الرأسمالي، شهد نمو المصانع وتوسع الإنتاج وما نجم عن كليهما من مظاهر التفاوت وعدم المساواة. ماركس يرى أن هناك عنصرين جديدين/أساسيين أتى بهما نظام الإنتاج الرأسمالي:

– أولا: رأس المال *(le capital)* وهو مجموع الأصول والموجودات –بما فيها المال والمعدات وحتى المصانع– التي يجري استخدامها أو استثمارها لإنتاج أصول جديدة في المستقبل، ويسمي هذه العملية "تراكم رأس المال". رأس المال في النظام الرأسمالي هو في يد فئة قليلة يسميهم ماركس بالرأسماليين والذين ينتمون اجتماعيا لطبقة البرجوازية.

– ثانيا: العمل بأجر *(le salariat)* ويشير إلى قطاع العمال الذين لا يملكون، لا وسائل الإنتاج ولا وسائل العيش، يملكون فقط قوة عملهم، لذا فهم مضطرون إلى أن يطلبوا الاستخدام من أرباب رأس المال (الرأسماليين/البرجوازيين) مقابل أجر. العمال يشكلون غالبية أفراد المجتمع، ولأنهم يشتركون في طريقة الكسب (الأجر وليس الملكية) ولديهم نفس المصالح فهم يعتبرون الطبقة الثانية التي يتكون منها المجتمع: طبقة العمال أو البروليتاريا.

القول بالحتمية المادية / الاقتصادية:

بالنسبة لماركس كل مجتمع يتكون من عنصرين أو بنيتين: "بنية تحتية/مادية/اقتصادية" من جهة، وبنية "فوقية/لامادية/اجتماعية" من جهة أخرى.

البنية التحتية تجمع القواعد التقنية والاقتصادية للمجتمع، والبنية الفوقية تشمل على النظام والمؤسسات السياسية الاجتماعية القانونية الفلسفية الثقافية الشفوية والدينية للمجتمع.

في منظومة الفهم والتحليل الماركسية، البنية التحتية (النظام الاقتصادي، نظام الإنتاج، نمط ملكية رأس المال) هي من تحدد البنية الفوقية (نوع النظام السياسي والاجتماعي، نوع الثقافة والأفكار والمعتقدات والمواقف). بعبارة أخرى المجال الاقتصادي يحتل مكانة مركزية في فهم الظواهر السياسية الإنسانية والاجتماعية.

مقولات ماركسية

– من يملك يسيطر. من يملك رأس المال (المال، المصنع، الآلات...) يسيطر ويتحكم في من لا يملكه. هي سيطرة لا تقتصر فقط على المجال الاقتصادي/المادي بل تتجاوزه إلى سيطرة اجتماعية سياسية ثقافية وأيديولوجية.

– فكر الطبقة المسيطرة هو في كل الأزمان الفكر المسيطر في العالم.

– في الأسرة، الرجل يلعب دور البرجوازي والمرأة دور البروليتاري.

– هناك طريقة واحدة فقط لقتل الرأسمالية، الضرائب ثم الضرائب ولا شيء غير الضرائب.

- الأفكار ما هي إلا أشياء مادية منقولة ومترجمة في عقل الإنسان.
- ليس وعي الناس هو من يحدد وجودهم، بل إن طبيعة وجودهم هي من تحدد نوع وعيهم.
- إنتاج الأفكار والتمثلات مرتبط أساسا بالنشاطات والتبادلات المادية بين البشر. إنها لغة الحياة الواقعية.
- الملكية الخاصة جعلت منا أغبياءً ومحدودي العقل، إلى حد اعتقادنا بأننا لا نحوز الأشياء إلا إذا ملكناها.

الطبقات الاجتماعية في صلب التحليل:

تحليلات ماركس انصبت على دراسة المجتمعات الطبقية (خاصة على المجتمعات الرأسمالية)، التي تنفرد بالملكية الخاصة لوسائل الإنتاج. بالنسبة له المواجهة بين الطبقات الاجتماعية (الصراع الطبقي) يعتبر محرك أساسي للتاريخ، إذن للتغير الاجتماعي.

التعارض بين الطبقات الاجتماعية هو أحد الخصائص الأساسية للمجتمع الرأسمالي. ماركس يفرق بين طبقتين اجتماعيتين: طبقة الرأسماليين (البرجوازية) وطبقة العمال (البروليتاريا). هاتان الطبقتان تدافعان عن مصالح متعارضة، لكي تحافظ كل واحدة على مصالحها وتحميها أو تثمنها فهي مجبرة على الدخول في مواجهة صراعية مع الطبقة الأخرى. هذا الصراع الطبقي يؤدي حسب ماركس إلى ثورة تكرس ديكتاتورية وحكم البروليتاريا أو المجتمع الاشتراكي، الذي وبعد مدة يترك المجال لمجتمع بدون طبقات: المجتمع الشيوعي.

من ما سبق، واضح جدا المكانة المركزية التي يوليها ماركس للصراعات الاجتماعية. إنها عامل تغيير وتجديد اجتماعيين وليست مؤشر فوضى اجتماعية (كما يرى دوركايم).

الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج تميز المجتمع الذي ينقسم بين من هم ملاك للوسائل المستعملة في تصنيع السلع والخدمات (الرأسماليين في النظام الرأسمالي)، وبين من لا يملكون لا الآلات ولا المصانع ولا الأموال، يملكون فقط قوة العمل التي يبيعونها للأوائل (الرأسماليين) مقابل اجر، إنهم العمال.

المحاضرة 5:

د/ ماكس فيبر (1864−1920) *Max Weber*:

ساهم مفكرون ألمان كثر مع مطلع القرن العشرين في نشأة علم الاجتماع، منهم جورج سيمل (*George Simmel*) وفرديناند تونيس (*Ferdinand Tönnies*). لكن الذي كان له أكبر قدر من المساهمة في علم الاجتماع من الناحية المنهجية والمفاهيمية/النظرية هو ماكس فيبر.

موضوع الدراسة في علم الاجتماع هو الفعل الاجتماعي:

يعرف فيبر علم الاجتماع على أنه علم دراسة الفعل الاجتماعي. "نسمي علم الاجتماع، العلم الذي مهمته **فهم الفعل الاجتماعي عن طريق التأويل**، ما يتيح **التفسير السببي** لمساره وآثاره... نعني بال**فعل** سلوكا إنسانيا يُضمّنه الفاعل **معنىً** شخصيا، وبال**فعل الاجتماعي** الفعل الذي يكون المعنى المتضمن فيه على **علاقة** بأفعال **فاعلين آخرين**".

ما الفعل الاجتماعي؟
الفعل = سلوك + معنى
الفعل الاجتماعي = فعل (سلوك+معنى) + تفاعل

خصائص الفعل الاجتماعي:

- حسب تعريف فيبر، فإن الفعل هو سلوك إنساني له معنى لدى فاعله. إذن هو فعل ذي دلاله لدى فاعله. لكي يعتبر سلوك ما فعلا بالمعنى الفيبري يجب أن يكون حاملا لمعنى بالنسبة لفاعله. مثال: التسجيل في دورة تكوينية قصد رفع حظوظي لايجاد وظيفة يعد فعلا ذي معنى، في حين أن اصطدام دراجتي بشجرة لا يعد فعلا.
- الفعل يصير اجتماعيا لما يكون المعنى الذي يتضمنه هو نتاج –رد فعل على– سلوكات الآخرين. بمعنى أن هذا الفعل يأخذ معنى لحظة التفاعل الاجتماعي. مثال: السلوك الديني ليس فعلا اجتماعيا إذا ما كان تأملا وذكر فردي لأن الآخرين لا يشاركون فيه. لكن مجرد المشاركة في صلاة جماعية و حضور جنازة يعد فعلا اجتماعيا، لأن المعنى المستهدف من طرف الفاعل يهم الآخرين (التعاطف مع أهل الفقيد، تقاسم الحزن والحسرة، مرافقة الفقيد إلى مثواه الأخير...).

الفعل الاجتماعي = سلوك ذى معنى لـ زيد على علاقة بسلوك ذي معنى لـ عمر.

الإنسان وفق طرح فيبر هو كائن واعي وفاعل، وليس مفعولا به. له قدرة على التأثير، إنه فاعل اجتماعي. هو يساهم في صنع المجتمع، هو ليس فقط فردا كما يقول بذلك دوركايم.
فيبر: الفاعل ≠ دوركايم: الفرد
فيبر: الفرد يصنع المجتمع ≠ دوركايم: المجتمع يصنع الفرد

بعد هذا العرض لموضوع الدراسة في علم الاجتماع حسب ما قال به فيبر، يتوجب التأكيد على الملاحظات التالية:

– التمييز بين كون الفعل اجتماعيا أو لا، هو أمر صعب جدا في الواقع. فيبر يعترف بذلك عندما يقول أن الأفعال الاجتماعية أفعال غير ثابتة.

– اعتبار الفعل اجتماعيا من عدمه، لا يرتبط بطبيعة الفعل، بقدر ما يرتبط بالمعنى الذي يُضمّنه إياه الفاعل (المعنى والسياق الذي يحدث فيه الفعل هو ما يحدد إن كان فعلا اجتماعيا أم لا). فتح شمسية ليس في نفسه فعلا اجتماعيا، ما يجعل هذا السلوك فعلا اجتماعيا هو السياق الذي يحدث فيه والأسباب الذي جعلت الإنسان يقوم بهذا الفعل.

– مفهوم "المعنى" هو في صلب مفهوم "الفعل الاجتماعي" لدى فيبر، وهو أيضا يمثل جوهر المفهوم الفيبري حول علم الاجتماع. في هذا السياق يمكن الإشارة إلى الفرق بين دوريكايم وفيبر، لدى فيبر الأفراد يقومون بأفعال ذات معنى لديهم ولدى غيرهم، أما دوركايم الأفراد ليس لديهم أي مسؤولية في الفعل كونهم ممارس عليهم حتمية اجتماعية.

تصور فيبر لطبيعة عمل عالم الاجتماع: مهمة عالم الاجتماع هي **فهم** المجتمع، وفهم المجتمع لا يتحقق ب**فهم** الأفعال الاجتماعية، وفهم الأفعال الاجتماعية لا يتأتى إلا ب**فهم المعاني** التي تتضمنها.

محددات/أنواع الفعل الاجتماعي:

فيبر يميز بين أربع محددات وأنواع للفعل الاجتماعي:

- للاثنين الأولين: سلوك تقليدي وعاطفي، الفرد فيهما على درجة منخفضة من الوعي بالأسباب التي تدفعه إلى الفعل. إن كان بالعادة أو بالعاطفة فهو يفعله عفويا، تقريبا عن ردة فعل.
- أما الفعلين الاجتماعيين الآخرين: الفعل العقلاني بالقيمة وبالغاية، فالفرد فيهما على درجة عالية من الوعي بما يدفعه إلى الفعل. لهذا فيبر يخصهما بتسمية الأفعال العقلانية. لما نقوم بفعل عقلاني بالقيمة فالشيء الوحيد الذي يهمنا هو الإيمان في بعض القيم (السياسية، الدينية، الأخلاقية...). أما في ما يخص الأفعال العقلانية بالغاية فالإنسان يقوم بمقارنة وتكييف الإمكانات التي يحوزها مع الأهداف التي يريد بلوغها، الأفعال الاقتصادية (الاستهلاك، الادخار، الاستثمار...) تندرج داخل هذا النوع من الفعل.

إذن هناك أفعال اجتماعية عقلانية وأفعال اجتماعية غير عقلانية.

محددات/أنواع الفعل الاجتماعي حسب فيبر

سلوك تقليدي	سلوك عاطفي	فعل عقلاني بالقيمة	فعل عقلاني بالغاية
بالعادة بالتقاليد	بالأحاسيس بالعاطفة	عن قناعة	بمقارنة الإمكانات بالأهداف
مثال: تحية باليد لزملائك حين دخولك القسم (عادة)	مثال: القيام بضرب إنسان آخر انتقاما منه (ردة فعل)	مثال: التصرف انطلاقا من قيم أخلاقية، جمالية أو سياسية... (عن قناعة)	مثال: الانضمام لدورة تكوينية قصد زيادة فرص التوظيف (عن تخطيط)
وعي منخفض بدوافع الفعل وموجهاته		**وعي عال بدوافع الفعل وموجهاته**	

علم الاجتماع علم فهم:

يرى فيبر أن هدف علم الاجتماع هو "فهم" الفعل الاجتماعي. الفهم يتم عبر تأويل وتفسير العلاقات السببية ضمن الأفعال الاجتماعية.

> لكي أفهم معنى فعل اجتماعي ما، يجب أن أقوم بتأويله ثم أفسر وقوعه.
> الـ **فهم** (المعنى)= **تأويل** (الأفعال الاجتماعية) + **تفسير** (أسبابها وآثارها)

في هذا الإطار يفرق فيبر بين نوعين من الفهم:

- فهم آني بالتأويل: الإحاطة بمعنى الفعل وقت حدوثه. (أنت تفهم الآن ومباشرة معنى الاقتراح: 2 + 2 = 4).
- فهم بالتفسير: الذي يعتمد على إعادة بناء الأسباب والدوافع التي أدت بالفرد إلى الفعل الذي قام به، وهذا ما يمكن به بوضع الفعل في السياق الاجتماعي الذي حصل فيه. (فهم لماذا قام طفل ما باختيار كرة القدم لا رياضة أخرى).

الفهم هو إذن بالنسبة لفيبر عملية منطقية وعقلية خاصة بعلم الاجتماع وليست حكرا على علم النفس مثلا. التفسير السوسيولوجي حسب فيبر يتضمن وفي نفس الوقت: الفهم بالتأويل (عالم الاجتماع يؤول انطلاقا مما يلاحظ ومما يقوله له الناس) والتفسير السببي لمجريات وآثار الفعل الاجتماعي.

جذور الرأسمالية الحديثة:

في كتابه "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية" (1905)، يتساءل فيبر حول: لماذا نشأت الرأسمالية في الغرب دون غيره من بقاع العالم؟ فيما كانت حضارات الصين والهند والشرق الأوسط تتقدم الغرب في مجالات العلوم والتقنية والنماء الاقتصادي، ما الذي حفز أوربا إلى أن تتصدر موقعا طليعيا متقدما بداية من القرن 18؟

يرى فيبر أن علينا أولا، أن نتبيّن الكيفية التي تميزت بها الصناعة الحديثة عن أطوار سابقة من النشاط الاقتصادي. وصحيح أن الحضارات الكبرى السابقة قد جمعت ثروات هائلة، وكانت الشعوب حريصة على إعلاء شأن الثروة المادية والتمتع بها، واستخدامها لأغراض الأمن وتعظيم السلطة والقوة الاقتصادية والعسكرية. غير أن النمو الاقتصادي اتسم في الغرب بسمات جديدة فريدة، يطلق عليها فيبر اسم "روح الرأسمالية"، وهي منظومة من المعتقدات والقيم التي حملها أوائل التجار والصناعين الرأسماليين. فقد حرص هؤلاء آنذاك على تجميع الثروة بالفعل والعمل طوال الوقت (الحياة لأجل العمل، لا العمل لأجل الحياة)، غير أن أسلوب حياتهم كان الأقرب إلى التقشف وإنكار الذات. وبدلا من أن يبددوا ما توافر لديهم من ثروات آثروا إعادة استغلالها واستثمارها للتوسع والتطوير في مشروعاتهم التجارية والاقتصادية.

يعتقد فيبر أن أصول التوجه الكامنة في روح التطور إلى الرأسمالية إنما تكمن في الدين، وفي توجه ديني محدد هو المذهب البروتستانتي (الكالفيني بالخصوص). وكان أول الرأسماليين من أتباع هذا المذهب، ووفق هذا التوجه فإن على البشر أن يزاولوا مهنة أو عملا وأن يتقنوا العمل فيه لمرضاة الله وتعظيمه، وأن النجاح في عمل يفضي إلى الازدهار المادي يعتبر في حد ذاته مؤشرا أساسيا على أن الإنسان قد يدخل في عداد هذه النخبة المختارة للخلاص، وكان من نتائج هذا المعتقد أن تولدت لدى أتباعه رغبة عارمة في تحقيق النجاح الاقتصادي. ولعبت هذه التعاليم الدينية دورا أساسيا في تشكيل النظام الاقتصادي الجديد، حتى أنها خرجت من إطارها الديني الأصلي لتصبح ركنا أساسيا في المنظومة القيمية والثقافية المؤثرة في المجتمع الرأسمالي.

العقلانية، مبدأ المجتمعات الحديثة:

يرى فيبر أن أهم ما يميز الحداثة هو ظهور ونمو العقلانية. والتي من مؤشراتها الأساسية انتشار البيروقراطية في المجتمع (برقرطة المجتمع).

> **العقلانية** هي منطق فعل مؤسس على العقل وعلى تتبع الأهداف، وليس على الأحكام القيمية.
> هي أيضا، تنظيم الحياة الاقتصادية والاجتماعية انطلاقا من مبادئ الكفاءة المرتكزة على المعرفة التقنية.

فيبر يلاحظ أن مجموع النشاطات الإنسانية، خاصة كانت أو عامة (مهنية، عائلية، علمية...)، تتجه يوما بعد يوم إلى أن تصبح نشاطات عقلانية أكثر. وهو الأمر الذي لمسه بوضوح في ثلاث مجالات:

– المجال الأول: معايير الاختيار. فالمعايير والاعتبارات التي يرتكز عليها الناس للقيام بخياراتهم في الحياة (الاستهلاك، الدراسة، الزواج، العمل، الانتخاب...) تتسم بالعقلانية (الحساب، الربح والخسارة، الفعالية، المصلحة،

المنفعة...) وتبتعد عن كل ما هو أحكام قيمية. مثال: في فريق كرة قدم محترف، اختيار اللاعبين يرتكز على معايير اقتصادية، تقنية، تكتيكية، وليس على معايير دينية أو عاطفية.

– المجال الثاني: فضاءات الحياة الاجتماعية (الحياة الخاصة، فضاء العمل، فضاء الترفيه، فضاء الدراسة...). هناك توجه واضح إلى استقلال كل فضاء بنفسه، فالدين مثلا صار محصورا في فضاء الحياة الخاصة باعتباره شأنا خاصا لا يحق لزملاء العمل مثلا (فضاء العمل) التدخل فيه.

– المجال الثالث: العلاقات الاجتماعية. والتي أخذ البعد الشخصي فيها بالانحصار، فبعد أن كانت العلاقة في المصنع مثلا هي علاقة بين أشخاص هم: محمد ولماني، سامية دوار، فتحي رقاد ورضا بكرار، صارت علاقة بين موظفين: المدير، سكرتيرة، رئيس مصلحة التسويق وتقني الآلات، لكل منهم وظيفة ومرتبة محددة في الهرم التنظيمي للمصنع. ما يلاحظ في هذا المثال هو أن البعد الشخصي في العلاقة قد تم تغييبه لصالح بعد آخر تنظيمي تراتبي له علاقة بطبيعة الوظيفة والمنصب الخاصة بكل واحد منهم.

هذا المثال ينطبق أيضا على حديثنا عن المجال الثاني (فضاءات الحياة الاجتماعية)، كون الفصل بين الفضاء الخاص وفضاء العمل هو فصل واضح. فمحمد لماني هو محمد ابن علي لماني في فضاء الحياة الخاصة (بعد شخصي)، لكنه المدير في فضاء العمل (بعد تنظيمي).